التحريرية

دانييل غيرين

(ترجمة : جورج سعد)

الأفكار المحورية للتحرّرية

CNT - AIT حداثة

A.I.T. / I.W.A.

Asociación Internacional de los Trabajadores
(Primera Internacional)

International Workers Association
(First International)

Union, Action, Revolution

To any contact : CNT AIT 7, rue St Rémésy 31000 TOULOUSE - FRANCE
Tel / Fax : +33 (0)5 61 52 86 48
cnt.ait@wanadoo.fr
http://www.cnt-ait.org

قاعدية عديدة من الكونفدرالية الوطنية للعمل سوف يساعدها على عدم الوقوع في تجاوزات الأحزاب الثورية «التسلطية». غير انها لن تنجح في لعب دورها القيادي، اذ عمدت بغباء الى وضع النقابات تحت الوصاية، وتذبذبت في استراتيجيتها، وكانت تطفح بالناشطين والديماغوجيين اكثر من الثوريين المستفيمين، سواء على مستوى النظرية، أم على مستوى الممارسة.

ان العلاقات بين الجماهير والأقلية الواعية تطرح إشكالية لم تجد بعد حلاً كاملاً لها، حتى من قِبَل التحرريين ، وحول هذه الإشكالية، لم تُقَلْ بعد الكلمة الأخيرة.

***

المسائل اللغوية
المتعلقة بكلمة تحررية

ان كلمة انرشية /anarchie/[1] هي قديمة قدم العالم. مصدرها كلمتان في اللغة اليونانية القديمة : *av (an)* و*apxn (arkhê)*، وتعنيان الى هذا الحد أو ذاك غياب السلطة والحكم . غير ان المقولة التي سادت على مر السنين والتي تقول بأن الناس لا يملكون ان يعيشوا دون سلطة أو حكومة اضفت على هذه اللفظة /anarchie/ معنىً محقّراً : أصبحت مرادفة للفوضى ، للبلبلة، لعدم التنظيم.

بيار جوزف برودون المعروف باختلاقه لكثير من النكات(من أمثال الملكية هي السرقة) هو الذي ابتكر هذه اللفظة . وكأنه كان يريد أن يصدم الناس على نحو قصوي فأجرى مع الانسان العادي هذا الحديث غير الخالي من الاستفزاز:

ـ هل أنت جمهوري؟

ـ جمهوري، نعم؛ لكن هذه الكلمة لا تعني شيئاً ./respublica/ ، إنه الشيء العام... الملوك هم أيضاً جمهوريون.

ـ إذن ! فأنت ديمقراطي.

ـ كلا.

ـ ماذا ! هلا تكون ملكياً؟

---

(١) انظر المقدمة: حول ترجمتنا لهذه الكلمة بكلمة «تحررية» .(م)

ـ كلا!

ـ دستوري؟

ـ معاذ الله.

ـ انت اذن ارستقراطي؟

ـ اطلاقاً .

ـ هل تطمح لحكومة مختلطة؟

ـ كلا وكلا.

ـ ماذا تكون إذن؟

ـ انا انرشي/anarchiste/[تحرّري].

بهذه اللفظة«انرشي» أراد برودون ان يعني عكس ما تعنيه كلمة فوضى تماماً، فهو إنسان بنّاء، رغم الظواهر، أكثر مما هو هدّام. كما انه كان أحياناً يتنازل بعض الشيء ويكتبها،على نحو مركّب «ان انرشي» /an-archie/[1] ليتجنّب هيجان مناهضيه الساخطين. بنظر برودون، الحكومة هي مصدر الفوضى. وفقط في ظل مجتمع دون حكومة يستتب النظام الطبيعي والإنسجام الاجتماعي. ولتحديد هذا الترياق[2]، تذرّع برودون بان اللغة لم تعطه لفظة أخرى وحلا له الرجوع الى المعنى الأساسي الإشتقاقي لكلمة انرشي.

ولكن ، وعلى نحو لا يخلو من التناقض، تَشبَّثَ برودون في قلب سعير السجالات ، كما فعل بعده تلميذه باكونين أيضاً ، مستخدماً هذه اللفظة في معناها المبتذل، أي بمعنى الفوضى ـ وكأن الأمور لم تكن معقدة بما فيه الكفاية.

---

(١) ليبرز لفظتي رفض السلطة /an- archie/ [اقرا رفض السلطة القمعية] ؛ من الخبث بمكان الاعتقاد ان المقصود رفض السلطة التنظيمية العادلة ، والتي لا يمكن الاستغناء عنها، وكما نعلم عمد الأنرشيون [التحرريون] الى تغيير تسمية هذه السلطة، فسمّوها تارة المجلس العمالي وطوراً الهيئة الفدرالية اواللجنة المنتخبة؟ هي معركة كلمات اذن . لكنهم لم يكونوا يوما ضد تنظيم المجتمع عبر هيئاته المنتخبة، وضد وجود قوة رادعة وقامعة للاعتداءات المخلة بأمن الناس. (م)

(٢) دواء صالح لجميع الأمراض.(م)

كما سيظهر هذا التناقض في الثورة الإسبانية ،حيث يتأرجح التحرريون بين قطبين: قطب حركة الجماهير وقطب النخبة التحررية الواعية .

لتبيان هذا التناقض ، سوف نكتفي بعرض استشهادين:

سوف يستنتجُ التحرريون من تجربة الثورة الروسية درساً جازماً: رفض « الدور القيادي» للحزب. أحد هؤلاء التحرريين، فولين، يصوغ هذا الموقف بهذه العبارات:«ان الفكرة الرئيسية للتحررية هي بسيطة : ان اي حزب، أي تجمّع سياسي، أو ايديولوجي، يضع نفسه فوق الجماهير الكادحة أو خارجها بغية ممارسة «الحكم» عليها، أو «قيادتها»، لن ينجح أبداً في تحرير هذه الجماهير، حتى ولو أراد ذلك بكل صدق. لن يتحقق التحرير الفعلي إلا عبر النشاط المباشر (...) للمعنيين بالأمر ، للعمال انفسهم، المتجمعين، لا تحت لواء حزب سياسي او تشكيلة أيديولوجية، ولكن في أجهزتهم الخاصة(نقابات الانتاج، لجان المصانع، التعاونيات، الخ.)، على قاعدة عمل ملموس،و«إدارة ذاتية »، يساعدهم في ذلك، لا يحكمهم في ذلك، ثوريون يعملون في قلب الجماهير، لا فوقها(...). ان الفكرة التحررية والثورة التحريرية الحقيقية لا يمكن ان يتحققا على يد التحرريين انفسهم، بل فقط على يد الجماهير الواسعة (...)، والتحرريون، أو قل الثوريون بصورة عامة لا يلعبون الا دوراً تنويرياً ومساعداً لهذه الجماهير. اذا اعتقد التحرريون انه يسعهم تحقيق الثورة الإجتماعية«بقيادتهم» الجماهير، فإن اعتقاداً كهذا هو مجرد وهم، تماماً كما كان وهم البلشفيين، للأسباب ذاتها».

غير أن التحرريين الإسبان سوف يشعرون بدورهم بضرورة تنظيم أقلية واعية ايديولوجياً ، تجسّدت في الفدرالية التحررية الايبرية[1] /La Fédération Anarchiste Ibérique/، ضمن نقابتهم المركزية الواسعة: الكونفدرالية الوطنية للعمل /La Confédération Nationale du travail (CNT)/، بغية محاربة الاتجاهات الإصلاحية لبعض النقابيين« المتزمتين »، وكذلك مناورات مؤيدي«دكتاتورية البروليتاريا». لقد استوحت الفدرالية التحررية الإيبرية بعض نصائح باكونين وجهدت للعب دور المرشد ، لا دور القائد، وكذلك ، فإن الوعي التحرري العالي نسبياً لعناصر

---

(١) ibérique :الجزيرة الايبرية ، وهي منطقة تتقاسمها اسبانيا والبرتغال .(م)

تأثيرنا يكمن هنا». يجب ان يكون التحرريون كـ «قواد [كطبارين] غير مرئيين» وسط العاصفة الشعبية. ينبغي ان يقودوها، لا عبر «سلطة ظاهرة»، ولكن عبر «دكتاتورية دون اسم [حزبي]، دون عنوان، دون حق رسمي، وهي تكون نافذة حقاً لأنها بالضبط لا تحمل اي مظهر من مظاهر السلطة».

ولكن باكونين لا يجهل الى اي مدى لا تختلف الكلمات التي يستخدمها («زعماء»، «دكتاتورية»، «الخ») عن تلك التي يستخدمها خصوم التحررية وهو يجيب مسبقاً على : كل من يزعم ان عملاً منظماً بهذه الصورة هو أيضاً انتقاص لحرية الجماهير، هو محاولة لخلق نفوذ تسلطي جديد: لا! ان الطليعة الواعية لا يجب ان تكون لا المحسن على الشعب ولا زعيمه الدكتاتوري، بل القابلة المولدة للتحرير الذاتي للشعب فحسب. كل ما تستطيع هذه الطليعة عمله هو ان تَنشر بين الجماهير أفكاراً تطابق غرائزها، ولا شيءَ عدا ذلك. كل ما تبقّى، لا يجب ولا يمكن أن يقوم به سوى الشعب ذاته. يجب على السلطات الثورية (لا يتوانى باكونين عن استخدام هذه الكلمة وهو يعتذر معبراً عن تمنّيه في وجود أقل عدد ممكن من هذه السلطات) ان تدفع الجماهير لإقامة تنظيمها المستقل من تحت الى فوق، لا ان تخضعهم لتنظيم معين، ان توقظ الثورة في قلب الجماهير، لا ان تفرضها عليها.

كما ستقول روزا لوكسمبورغ بعد هذا التاريخ بفترة طويلة، فإن باكونين كان يرى ان التناقض بين العفوية التحررية وضرورة تدخُّل الطلائع الواعية لن يُحَلَّ فعلاً إلا عندما يدخل العلم صفوف الطبقة العاملة، عندما تصبح الجماهير واعية تماماً بحيث لا تعود بحاجة الى «زعماء»، بل فقط الى «أجهزة تنفيذية»، «لنشاطها الواعي». بعد إشارته الى أن البروليتاريا لا يزال ينقُصُها التنظيم والعلم، يصل باكونين الى درجة اعتبار ان الأممية العمالية لن تصبح وسيلة تحرير الا « عندما تكون قد أدخلت في الوعي التفكيري لكل من أعضائها علم وفلسفة وسياسة الاشتراكية».

لكن هذا التوليف [هذه الخلاصة ، هذا الاستنتاج] الجيد من الناحية النظرية هو ككمبيالة مسحوبة على فترة طويلة. وبانتظار ان يسمح التطور التاريخي تحقيقها: فإن التحرريين، كما الماركسيين، يبقون، الى هذا الحد أو ذاك، سجناء تناقض. وهذا التناقض سوف يُمَزِّقُ الثورة الروسية، التي تتجاذبها من ناحية السلطة العفوية للسوفيات ومن ناحية ثانية طموح الحزب البلشفي الى الإمساك بـ «الدور القيادي»،

أكثر من ذلك راح برودون وباكونين يتلذّذان باستخدام هذا الخلط: فمن ناحية كانا يعتبران ان الأنرشية هي الفوضى التي ما بعدها فوضى ، عدم التنظيم الشامل في المجتمع، ومن ناحية ثانية، وبعد هذا الانتقال الثوري الهائل، يأتي بناء نظام جديد، ثابت وعقلاني، مؤسَّس على الحرية والتضامن.

غير ان التلامذة المباشرين لبرودون وباكونين ترددوا في استخدام هذه اللفظة المطاطة، على نحو مؤسف، والمعبِّرة عن فكرة سلبية، بالنسبة لغير المثقفين، ومصدر غموض سيء النتائج. وبرودون ذاتُه، بعد أن ترزَّن في نهاية حياته السياسية القصيرة، راح يسمي نفسه «فدرالي». فيما بعد، فضّلَ التيار البورجوازي الصغير استخدام لفظة /mutuelisme/ [تعاونية] والتيار الاشتراكي لفظة /collectiviste/ [جماعي] والتي ستحل محلّها قريباً لفظة شيوعي.

وفي فرنسا ، في نهاية القرن الفائت، سيستعيدُ سيباستيان فور /Sébastier Faure/ كلمةً، إبتكرها سنة ١٨٥٨ جوزف ديجاك /Joseph Déjacque/، وسيستخدمها كاسم لصحيفة: لوليبرتير /Le Libertaire/، وتعني « التحرّري». اليوم، هاتان الكلمتان anarchiste و libertaire تحملان، الى حد كبير، المعنى ذاته.

بيدَ أن لغالبية هذه العبارات سيئةً كبيرة وهي انها لا تعبّرُ عن الطابع الأساسي للعقائد التي تزعم تمثيلها. انرشي، هي قبل اي شيء كلمة مرادفة لإشتراكية. الأنرشي هو أولاً إشتراكي يطمح الى القضاء على استغلال الانسان لأخيه الإنسان. والأنرشية [أو التحريرية] هي أحد فروع الفكر الإشتراكي ليس إلا. إنها فرع حيث يسود الاهتمام بمسألة الحرية وبالخلاص بأسرع وقت من الدولة [اقرأ الدولة القمعية]. بحسب أدولف فيشر /Adolphe Fischer/، أحد شهداء شيكاغو، «كل تحرّري هو إشتراكي، لكن كل اشتراكي ليس بالضرورة تحرريا» .

يعتبرُ بعض التحررين أنفسهم الاشتراكيين الأكثر أصالة واخلاصاً لمبادئهم. إلا ان التسمية التي ألصقوها بحالهم، أو تركوها تُلصقُ بهم، والتي كانت في الوقت ذاته صفة الإرهابيين، جعلتهم، وعلى نحو غير عادل، «جسماً غريباً»، ضمن العائلة الإشتراكية. ومن هنا يجب فهم سلسلة الخلافات وسوء التفاهم حول كلمات ، وخلافات كانت تحصل غالباً دون هدف. على ان بعض التحرّرين المعاصرين ساهموا في إزالة هذا التناقض باعتناقهم تسمية أكثر وضوحاً: فهم يُعرّفون أنفسهم بأنهم ينتمون للإشتراكية أو للشيوعية التحررية.

ثورة عميقة جداً

التحررية هي قبل أي شيء ما يمكن تسميتُهُ ثورة عميقة جداً. في نهاية العام الفائت، استنتج أوغستان هامون/Augustin Hamon/ من تحقيق أجراه في الوسط التحرري ان التحرري [1] هو أولاً فرد ثائر. إنه يرفض المجتمع بأكمله وحرّاس مساجينه المؤبدين. إنه متخلص ، كما يقول ماكس شتاينر، من كل ما هو مقدس. هو يقوم بعملية «إزالة تكريس» شاملة [أي يمكنُ هدمُ كل قواعد السلطة القمعية وتقاليدها]. «متشرّدو الذكاء» هؤلاء، «الرؤوس السيئة»، « فبدل ان يعتبروا ما يُقدَّمُ لآلاف الناس الراحة والعزاء حقائق لا تتزحزح، هم يقفزون فوق الحواجز التقليدية ويستسلمون دون كابح لنزوات تقدمهم الوقح».

يرمي برودون بعيداً كل « الأمة الرسمية»، فلاسفة ، كهنة ، قضاة، أكاديميين، صحافيين، برلمانيين، الخ. «فالشعب ، بنظر هؤلاء ، هو وحشٌ يجب محاربتُهُ ، كمُّهُ، تكبيلُهُ؛ يجب ادارتُهُ برشاقة كوحيد القرن او الفيل؛ ترويضُهُ بالجوع، هدر دمه بالاستعمار والحرب». يشرح اليزيه ركلوز /Ellsée Reclus/ [2] لماذا يحافظ هؤلاء المحظوظون على هذا المجتمع: «لأن هناك اغنياء وفقراء ، أقوياء ومأمورون، معلمون وخدّام، قياصرة يأمرون بشنّ الحروب ومقاتلون يذهبون للموت، ولا يبقى أمام الناس المتنبهين الا الوقوف الى جانب الأغنياء والمعلمين ، وعمالقة القياصرة.

---

(١) من الآن فصاعداً ، وقد اتضحت للقارىء المسائل اللغوية والاشتقاقية ، سوف نستخدم كلمة تحررية «العربية» كترجمة لكلمة انرشية وكذلك لكلمة ليبرتير /libertaire/ ؛ مع اضافة الكلمة الفرنسية حيث تجدر الاضافة. (م)

(٢) جغرافي ومنظر للفكر التحرري. كان مقرباً من كروبوتكين وله مساهمات نظرية قيّمة. (م)

للسلطة[1]. في أحسن الأحوال، يمكن « التوزين» بين هذين العنصرين.

قبل أن يعتنق باكونين مبادىء التحررية، حوالي العام ١٨٦٤، كان يسبح في بحر المؤتمرات والتنظيمات السرية وكان مقتنعاً بالفكرة البلانكية بصورة خاصة، والتي تقول ان العمل الأفلي [اي نشاط أقلية نخبوية] يجب ان يسبق يقظة الجماهير الواسعة، وبعد انتزاع هذه الجماهير من سباتها، سوف تنضم الى هذه النخبة العناصر الأكثر تقدماً. في الأممية العالمية، وهي الحركة البروليتارية الواسعة التي أسست بعد ان طال الإنتظار، طُرحت المشكلة بصورة مختلفة . بيد ان باكونين، الذي صار تحررياً، بقي مقتنعاً بضرورة وجود طليعة واعية: « لإنتصار الثورة ضد الرجعية، من الضروري ، في وسط هذه الفوضى[2] الشعبية /anarchie populaire/ التي تكوّنُ حياة الثورة نفسها وطاقتها، من الضروري ان تَجدَ وحدةُ الفكر والنشاط الثوري جهازاً». يجب ان تمارس فئة من الأفراد، عديدةٌ الى هذا الحد أو ذاك، يحركها الفكر ذاتُهُ وتصبو الى الهدف ذاته، «نشاطاً [تأثيراً] طبيعياً على الجماهير. « بإمكان عشرة ، عشرين أو ثلاثين رجلاً ، متفقين ومُنظَّمين تماماً فيما بينهم، تحريك مئة، مئتين، ثلاث مئات او حتى أكثر ». «ان كل ما يجب ان نُشكّله هو قيادات عليا، منظّمة جيداً ، ومستلهمَة [مبادئها] من زعماء الحركة الشعبية».

ان الطرق التي يوصي باكونين باتباعها تشبه الى حد كبير ما تسميه اللغة السياسية الحديثة «التنوية»[3] /noyautage/. يجب العمل « خفية» على تهيئة الأفراد الاكثر ذكاء، والأكثر فعالية في كل محلة» بغية ان يكون هذا التنظيم الأكثر مطابقة لمبادئنا. كل سر

---

(١) اي انه لا يضمر ان يقتصر دور النخبة المفكرة على التوجيه والتعليم ، بل سيتعداه الى الهيمنة والتعسف .(م)

(٢) نستخدم هنا كلمة فوضى كترجمة لكلمة /anarchie/ اذ ان باكونين يقصد هنا الفوضى الشعبية التي هي بحاجة لجهاز نخبوي طليعي منظّم . المقصود هنا اذن هو المعنى المبتذل لـ /anarchie/ ، نقول المبتذل لأن المعنى الأصلي لهذه الكلمة هو رفض السلطة ، اي رفض التسلط، كما سبق وفسّرنا ذلك. (م)

(٣) التنويه ، اي صنع نواة او خلايا (تكوين نخب ثورية): نقترح ايضاً نوتنة ، وخلّينة (م).

(...) تنبثق من ذاتها ، في قلب الشعب ، مهدمة كل ما يعترض السيل العام والجارف للحياة الشعبية كي تخلق بعدئذ ، وانطلاقاً من اعماق الروح الشعبية نفسها، الاشكال الجديدة للحياة الاجتماعية الحرّة ». في تجربة كومونة باريس لعام ١٨٧١ يجد باكونين تطبيقاً واضحاً لآرائه . كان ثوريو كومونة باريس على قناعة ان في الثورة الاجتماعية «نشاط الافراد هو لا شيء، تقريباً والنشاط العفوي لجماهير هو كل شيء».

كسابقيه ، يحيي كروبوتكين « هذه الروح الرائعة للتنظيم العفوي التي يملكها (...) الشعب ، بدرجة عالية ، والتي لا يُسمح له بممارستها الا نادراً » . ويضيف بسخرية : لن يشكك بهذا القول الا من امضى طوال حياته خلف المكاتب [بين الاوراق المكتبية].

لكن الانسان التحرري، بعد هذه التوكيدات المتماثلة بسخاء ، يجد نفسه ، وكذلك ايضا اخوه العدو ، ونعني الماركسي ، يجد نفسه امام تناقض خطير . ان عفوية الجماهير هي اساسية ، لها الأولوية ، لكنها لا تكفي لكل شيء . لكي تصل الى وعي الجماهير، لا مفرّ من وجود اقلية من الثوريين قادرة على تفكير[1] الثورة [اي دور صياغة الاطار الفكري للثورة]. كيف نتجنّب ، يا ترى ان تفيد هذه النخبة من فوقيتها الفكرية ، فتحلّ محل الجماهير وتشلّ مبادرتها، وحتى تفرض عليها هيمنة جديدة؟

بعد تمجيده المثالي للعفوية ، يلاحظ برودون جمود الجماهير ، ويستنكر الحكم المسبق حول دور الحكومة ، وغريزة الاحترام الذي تكنّه الجماهير لها ، واخيراً عقدة النقص التي تعيق الحيوية الشعبية . يجب بالتالي تحريك واثارة العمل الجماعي للشعب. يمكن ان تستمرّ عبودية الطبقات السفلى الى ما لانهاية، اذا لم يأتهم نورٌ من الخارج. ثم يوافق ، مُسَلِّماً، على : «ان الأفكار التي حركت الجماهير، في كل العصور ، كانت وُلدت سابقاً في أدمغة بعض المفكرين(...). لم تكن الأولوية ابداً للتعدديات(...). ان الأولوية في أي عمل فكري هي للفردانية.» والشيء المثالي هو ان تنقل هذه الأقليات الواعية علمها، علمها الثوري، الى الشعب . لكن برودون يبدو متشككاً من إمكانية تطبيق هذا الإستنتاج: اذ إن في هذا جهلاً للطبيعة الغازية

---

(١) تفكير الثورة : من فكّر الثورة، نستخدم هذا الفعل كفعل متعدٍّ /transitif/ لترجمة عبارة /penser la révolution/ .(م)

ان حالة الثورة الدائمة التي يعيشها التحرّري تدفعه الى التعاطف مع اللانظاميين، مع الخارجين على القانون ، تدفعه الى الدفاع عن قضية المحكوم بالأشغال الشاقة، عن المنبوذين. ويذهب باكونين الى انه من غير العادل ان يتكلم ماركس وانجلس باحتقار عميق عن « البروليتاريا الرثة»، اذ ان في «هذه البروليتاريا وفي هذه فقط، وليس في الشريحة المبرجزة من الطبقة العاملة، تكمن روح وقوة الثورة الإجتماعية المستقبلية»[1] .

وهل نجهل ان بالزاك /Balzac/ [الأديب الفرنسي الشهير] يُفجّر آنوالآ يؤيدها اي [ثائر] تحرري، يفجرها في فم فوترين/Vautrin/، أحد أبطاله، نصف المتمرد، نصف المجرم، إنه التجسيد الأقوى للثورة الإجتماعية.

كُرْهُ الدولة (٢)

بالنسبة للتحرري ، بين جميع الأفكار المسبقة التي تعمي الإنسان منذ القدم، فكرة الدولة هي اكثرها شؤماً. ويطنّ شتاينر ضد الذي « تتملكه الدولة منذ أبد الابدين».

---

(١) نعتقد ان باكونين يخلط هنا بين وصف ماركس وانجلز للحالة الحقيرة [اي الفقيرة جداً] للبروليتاريا الرثة ، اي الناس الأشد فقراً ، والنظرة الاحتقارية لها بالمعنى المبتذل (م)

(٢) نقولها منذ الآن ، الدولة التي يرفضها التحرريون ، والماركسيون اجمالاً ، هي ذلك البناء الذي يمأسس القمع وينظمه ويكرس الطبقية . هي أيضاً ذلك المفهوم الذي فرّق بين الشعوب، اذ ان الحدود بين الدول هي حدود مصطنعة ، خلقتها المصالح الشخصية للأمراء والزعماء والاحزاب ؛ الحالة الطبيعية والصحيحة هي اذن في الغاء هذه الحدود الفاصلة بين شعوب كل هذه الكرة الأرضية . عند ماركس ستفنى الدولة تلقائياً عندما تقرى درجة الوعي عند الناس وتنتهي مرحلة الرأسمالية واللامساواة بين البشر. اذ ان دور الدولة الاساسي هو الحفاظ على حالة عدم المساواة . يشارك التحرريون الماركسيين هذا الرأي ، ويضيفون ان هذا لايعني ان كل الشعوب ستعيش ضمن دولة واحدة، أياً كانت تسميتُها، كلا، لكل شعب ملء الحرية في اختيار مصيره والحفاظ على خصوصياته . سوف تعيش هذه الشعوب ضمن فدراليات ثورية: لن تُفرض الوحدة فرضاً ، بل يتحد من يشاء مع من يشاء، وينفصل عنه متى يشاء ، وبالقدر الذي يشاء.(م)

وبرودون يهاجم بالقوة ذاتها هذه «الفكرة المهلوسة التي تُسَمّي الدولة ويرى أن الواجب الأول للعقل الحر هو رَميُها في المتاحف والمكتبات». ثم يشرعُ برودون بالتفسير مفككاً هذه الآلية : « إن ما هيأ الاستعداد العقلي لدى الناس وما أحاط الدولة بهذه الهالة من السحر هو ان الحكومة قُدِّمَتْ للناس على انها هيئة العدل الطبيعي، حامي الضعيف» . ثم يتهكّم برودون بالتسلطيين الصامدين [اللينينيين مثلاً] الذين ينحنون أمام السلطة كما ينحني وكلاء الكنيسة أمام القربان المقدّس، ويعصف ضد «جميع الأحزاب دون استثناء » الذين يتوجهون« دوماً نحو السلطة التسلطية ، كأنها قطبَهم الوحيد» ، ويُعبّر عن أمله في انبلاج ذلك اليوم الذي يحلُّ فيه «العدول عن السلطة في الكتب السياسية محلَّ الإيمان بالسلطة».

ويسخر كروبوكتين من البورجوازيين الذين« يعتبرون الشعب كتجمعات متوحشين تتحاربُ فيما بينها حالما تتوقف الحكومة عن العمل». أما مالاتستا[1]، مستقاً التحليل النفساني، اكتشف الخوف من الحرية الذي يسكُنُ اللاوعي عند «التسلطيين».

ما هي اضرار الدولة بنظر التحرريين؟

فلنسمع شتاينر:«نحن الإثنان ، الدولة ، وأنا، عدوّان. كل دولة هي طغيان ، سواء كان طغيان شخص، أم عدة أشخاص». كل دولة هي بالضرورة، كما نقول اليوم: دولة كليانية [أو شمولية]:«للدولة دوماً هدف واحد: الحد، الربط، إخضاع الفرد، إخضاع الشيء العام (...). تحاول الدولة برقابتها ، بمراقبتها ، بشرطتها ، إعاقة اي نشاط حر، معتبرة ان هذا القمع هو واجبها لأنه مفروض عليها (...) بفعل غريزة بقائها الشخصي». « لا تسمح لي الدولة الإفادة من أفكاري وإيصالها لباقي الناس إلا اذا كانت مماثلة لأفكارها أيضاً (...)، أي انها تُقفلُ لي فمي».

ويجيب برودون شتاينر على الوتر ذاته: « حكم الإنسان للإنسان: إنها العبودية». «أي انسان يضعُ يده علي ليحكمني، هو مغتصب ودكتاتور. انه عدوي» . وينطلق برودون في خطبته الهجومية التي تذكرنا بموليير/Molière/ وبومارشيه /Beaumarchais/ :« عندما يعيش الانسان تحت حكم معيّن فهو يصبح كالموقوف ، المحقّق معه. المجسّس عليه، المُقاد، يصبح موضوع تشريع، وتنظيم، كمزروب،

(١) سنأتي على الحديث عنه لاحقاً .(م).

مصادر الطاقة : الجماهير

أتاحت ثورة ١٨٤٨ لبرودون اكتشاف ان الجماهير هم القوة المحركة للثورات:«ان الثورات ، يقول برودون في نهاية عام ١٨٤٩، لا تعترف بمحركين لها؛ انها تأبى عندما يدعوها مؤشر المصائر؛ وهي تنتهي عندما تنتهي القوة العجيبة التي اطلقتها» . «لقد قامت جميع الثورات بعفوية الشعوب وفي الحالات القليلة التي تبعت فيها الحكومات المبادرة الشعبية ، فقد فعلت ذلك مكرهة ومغلوبة على أمرها. وفي جميع الحالات تقريباً، هذه الحكومات منعت ، ضغطت ، ضَرَبَت ». « ان الشعب ، عندما تقوده غريزته وحدها، يرى دوما اكثر وضوحا مما اذا كان مقادا بسياسة محركيه» « ان الثورة الاجتماعية (...) لا تحصل تبعاً لأمر معلم يحمل نظريته الجاهزة ، او تبعاً لإملاء صاحب وحي [ثوري نزل الوحي عليه] . ان الثورة التي هي حقاً ثورة عضوية، نتاج الحياة الجامعية [الكونية] ، ورغم ان لها « رسلها» [المقصود رجالها] ومنفذيها ، فهي، في الحقيقة، ليست عمل شخص معيَّن» . يجب ان تُقاد الثورة من تحت ، لا من فوق. بعد تجاوز الازمة [المرحلة] الثورية ، يجب ان تكون عملية اعادة البناء الاجتماعي عَمَل الجماهير نفسها . يؤكد برودون هنا على «شخصية واستقلالية الجماهير».

وياكونين بدوره لا يكلُّ من تكرار ان الثورة الاجتماعية لا يمكن ان تُقرَّر ونُنَظَّم من الأعلى ، بل لا يمكن ان تُقام وتصل الى نموها الكامل الا بفضل العمل [النشاط] العفوي والمستمر للجماهير .«تأتي الثورات كلصٍّ في الليل». «تُنتجُها قوة الأشياء». «هي تتحضّر طويلاً ، في عمق الوعي الغرائزي للجماهير الشعبية ثم تنفجر، وفي أغلب الأحيان لأسباب واهية، ظاهريا. «يمكن ارتقاب الثورات ، الشعور بقربها (...)، ولكن لا يمكن ابدا تسريع انفجارها ». « ان الثورة الاجتماعية التحررية

ناهيك عن ان باكونين ليس ايّنا ابداً مع الأنانية بمعناها المبتذل، اي مع الفردانية البورجوازية التي «تدفع الانسان الى بناء وإرساء سعادته الخاصة (...) رغم كل الناس وعلى حساب كل الناس» . «هذا الفرد المنعزل والمجرّد هو مجرد وهم، مثل الله». الانعزال المطلق، هو الموت» الفكري، المعنوي والمادي ايضاً» .

ذهنية باكونين هي ذهنية واسعة وتوليفية /synthétique/، إذ يقترح بناء جسر بين الأفراد وحركة الجماهير: «كل الحياة الإجتماعية ليست سوى تبعية متبادلة ودائمة بين الأفراد والجماهير. كل الأفراد، حتى الأكثر ذكاء منهم، الأكثر قوة (...)، هم في كل لحظة من حياتهم، وفي الوقت نفسه، محرّكو وثمرات إرادات ونشاط الجماهير»[1] . بالنسبة للإنسان التحرري (الأنرشي)، الحركة الثورية هي ناتج هذا النشاط المتبادل؛ لذا فهو يُعلّقُ الأهمية ذاتها، لجهة المردودية النضالية، على النشاط الفردي والنشاط الجماعي، والمستقل، للجماهير.

والورثة الروحانيون لباكونين، اي التحرريون الاسبان، ورغم تعلّقهم الشديد بالمفهوم الاشتراكي [بالتشاركية]، سوف يشيرون وبشكل صريح، عشية ثورة تموز ١٩٣٦، الى الاستقلالية المقدسة للفرد: يكتبُ دييغو آباد دو سانتيان ان «الطموح الابدي الى الوحدانية سوف يُعبّرُ عنه بألف طريقة: لن يُخنَقَ بأي تسوية[2] (...). سوف تجد الفردانية والذوق الخاص والخصوصية حقلاً خاصاً للظهور والتعبير».

(١) اي أنهم يحركون الجماهير، وبالمقابل، لولا الجماهير، لما تحلوا بهذا الذكاء، والنشاط والفعالية. (م)

(٢) /nivellement/، اي بقواعد تجعله مساوياً للآخرين، بصورة ميكانيكية، ودون الأخذ بعين الاعتبار جهود كل شخص وخصائصه وملكاته. (م)

مغسول الدماغ، موعوظ، مفتّش، موضوع تقدير، موضوع رقابة ومأمور من قبل كائنات لا تملك لا الصلاحية ولا العلم ولا الفضيلة (...). العيش تحت حكم معيّن يعني ان يخضع الانسان لعلامات تقدر اعماله، ان يكون مسجلا، محصىً، مسعّراً، مطبّعاً[1]، منظوراً اليه بازدراء، مرقّماً، يعني ان يدفع بالضرورة اشتراكاته، ان يرخّص له، ان يُلحَنَ، أن يربّخَ، يُمنَعَ، يُصلَّحَ، يقوَّمَ ويُصَحَّحَ. العيشُ تحت اي حكم يعني، تحت ذريعة المنفعة العامة وباسم المصلحة العامة ان يُستخدم الانسانُ، يستعملَ، يُفدى به، يُستغلَّ، يُحتكَر، يُبتَزّ، يُعصَرَ، يُخدع، يُسرقَ، وعند أدنى مقاومة، عند أول لفظة استنكار، يُقمعُ، يغرّمُ، يهانُ. يجرحُ شعورهُ، يلاحقُ، يعامل بشراسة، يقتلُ، يُنزعُ من السلاح، يوثَقُ، يُسجنُ، يُرمى بالرصاص، يُرشُ، يُحاكَمُ، يحكمُ، يبعدُ، يضحّى به، يُباعُ، يغدرُ، وأكثر من كل هذا، يُلعبُ به، يُهزأ به، يُشتَمُ، يُفضَحُ. هاكم ما هي الحكومة، هاكم العدالة، هاكم الأخلاق!(...) . آه! يا أينها الشخصية الإنسانية! أيَعقلُ أن تقبعي منذ ستين قرناً تحت هذه السفالة؟»

بنظر باكونين، الدولة هي «تجريد[2] مفترس للحياة الشعبية. مقبرة هائلة حيث، في ظل وباسم هذا التجريد، تُضحّي بنفسها وتُطمرُ، بسخاء وبسذاجة، جميع الطموحات الحقيقية، جميع القوى الحية في البلد». «الحكومة هي أبعد ما يكون عن ان تخلق النشاط والحيوية، إنها، بنظر مالاتستا، تُبذّرُ، تُشلُّ وتهدّمُ بطرائق عملها ثروات هائلة».

وكلما توسّعت صلاحيات الدولة وبيروقراطيتها، كلما تفاقم الخطر. وفي رؤية نبوية يُعلنُ برودون كارثة القرن العشرين الكبرى: «سوف تؤدي الوظائفية الى شيوعية الدولة، الى ابتلاع كل حياة محلية وفردية ضمن الآلية الإدارية، الى تهديم كل فكر حر. وسوف يلجأ كل الناس تحت جناح السلطة، للعيش على حساب الجماعة». لقد حان الوقت لإيقاف هذا المسار: «ان التمركز يفوى أكثر فأكثر (...) الى درجة لم يَعُدْ معها ممكناً ان يعيش المجتمع والحكومة معاً». كل ما يوجد في الدولة على الاطلاق، من أعلى مراتبها الى أسفلها، هو اغتصاب يجب تقويمه، وتشويش يجب الغاؤه، اداة قهر

(١) من طابع، /timbre/ .

(٢) تجريد /abstraction/ والشيء المجرد هو البعيد عن الواقع، الفارغ من المضمون. (م)

يجب هدمها. ومع هذا تتكلمون ايضاً عن الحفاظ على الدولة، عن زيادة صلاحياتها، عن تعزيز سلطة الدولة! لستُمْ مطلقاً ثوريين!».

وباكونين ايضاً، الذي كان ينظر الى الدولة نظرة أليمة ، كان يرى بوضوح اتجاهها المتزايد نحو الكلبانية. فبنظره ، ان قوى الثورة العالمية المضادة« المدعومة بأموال هائلة، بجيوش دائمة، ببيروقراطية رهيبة، والمالكة «للإمكانات العظيمة التي تقدمها لها المركزة الحديثة»، ان كل هذا لهو شيء ضخم ، مهدِّدٌ وساحق ».

الهجوم على
الديمقراطية البورجوازية

يرفض التحرري بضراوة خدعة الديمقراطية البورجوازية، أكثر مما يفعل ذلك الاشتراكي « التسلطي».

ان الدولة البورجوازية الديمقراطية المسماة « أمة» لا تبدو أقل خطورة من الدولة القديمة الاستبدادية بنظر شتاينر:« الملك (...) كان ملكاً بائساً، مقارنة بالملك الجديد،[أي] الأمة السيدة . ليست الليبرالية سوى تكملة الاحتقار القديم للأنا. بالطبع، لقد تمَّ مع الوقت انتزاع عدة امتيازات ولكن حصرياً لصالح الدولة (...) وليس إطلاقاً لتقوية الأنا».

برأي بروردون«ليست الديمقراطية أكثر من دستورية تعسفية». ولقد أُعلنت سيادة الشعب بخدعة من آبائنا. في الواقع ان هذا الشعب هو أشبه بملك دون مُلك، انه قردُ الملوك، لا يحملُ من عظمة الملوك إلا الإسم. انه مَلِكٌ لا يحكُمَ. ينتدب[أو يفوِّض] سيادته بالممارسة الدورية للإقتراع العام، محدداً بذلك كل ثلاث او خمس سنوات استسلامه. واذا كان تمَّ طرد الملك، فالملكية هي ، ما زالت محفوظة، مُصانة، منظمة أحسن تنظيم. ان بطاقة الاقتراع بين ايدي شعب أُهمِلَ تثقيفُهُ عمداً، ليست سوى حيلة لعينة لا يَفيدُ منها إلا تحالف سادة الأملاك والتجارة والصناعة.

ويرى باكونين ان « النظام التمثيلي لا يضمنُ اطلاقاً مصالح الشعب ، بل يخلق

راشدين. حتى انني أملك الحق في الدخول في تشاركيات هي « لا أخلاقية» أو تبدو كذلك . ويذهب باكونين، مدفوعاً الى ذلك برغبته الحفاظ على الحرية، الى حد القبول بأن أدخل في شراكات /associations/، تهدف الى إفساد أو هدم الحرية الفردية أو العامة : «لا يجب ولا يمكن أن يدافع عن الحرية الا الحرية ذاتُها ؛ وإنه لَقلبٌ خطير للأمور ان نريد ضرب الحرية بحجة حمايتها الخادعة».

اما فيما يخُصُّ المشكلة الأخلاقية، فإن باكونين مقتنع تماماً بأن« اللاأخلاقية» هي نتيجة تنظيم فاسد للمجتمع. ينبغي اذن تهديم هذا المجتمع كلياً، لا يمكن خلقنة[1] الناس إلا بالحرية . فكل تضييق فُرِضَ بحجة حماية الأخلاق ضَرَبَ الأخلاق في نهاية الأمر. والقمعُ، كان دوماً أبعد ما يكون عن إيقاف التجاوزات اللاأخلاقية، لا بل عمَّقَها، وأكثَر منها دوماً. انه لمن غير النافع اذن فرض تشريع قاس يضرب الحرية الفردية.

أما بالنسبة للأشخاص المشوشين، الكسولين، السيئين، فإن باكونين لا يقبل الا بعقوبة واحدة : نزع الحقوق السياسية، أي الضمانات التي يمنحها المجتمع للفرد . وكذلك ، فلكل فرد الحق بأن يتخلّى عن حريته من تلقاء ذاته، ولكن ، في هذه الحالة، يُنْتَزَعُ منه حق التمتع بحقوقه السياسية خلال كل فترة هذه العبودية الإرادية.

بالنسبة للجرائم ، يجب أن يُنْظَرَ اليها كمرض وعقوبتها كمعالجة، لا كعقوبة ينفذها المجتمع ، وأكثر من ذلك ، يجب ان يحتفظ الفرد بحق عدم الخضوع للقصاص المفروض، وذلك بالتعبير عن إرادته في الخروج من إطار هذا المجتمع. وهذا الأخير ، بالمقابل، له الحق في طرده وفي اعتباره خارج إطار ضمانته وحمايته.

لكن باكونين ليس قطعاً نيهيلياً. إن اطلاقه مبدأ الحرية الفردية المطلقة لا يدفع به الى إنكار كل واجب اجتماعي. أنا لست حراً إلا من خلال حرية الآخرين.« لا يحقق الانسان فردانيته الحرة إلا اذا كمّله جميع الأفراد الآخرين الذين يحيطون به ونقط بفضل العمل الجماعي والنفوذ الجماعي للمجتمع». ان الشراكة هي إرادية، ولكن لا شك ان باكونين يعتبر ان« هذه الشراكة ستستقطب كل الناس، نظراً لما تقدمه من حسنات هائلة». الانسان هو « الاكثر فردانياً والأكثر اجتماعياً بين الحيوانات».

---

(١) خلقنة، من خلقن، جعل اخلاقياً، moraliser؛ سمحت لنفسي بهذا التركيب، عسى ان يكون صحيحاً لغوياً .

الفردية والقوة الجماعية. «كما الفردانية هي الواقعة الأولى للإنسانية ؛ فان الشراكة هي المكمِّل الأخير». «بعضهم ، ممن يعتبرون ان الإنسان لا قيمة له في المجتمع (...) يميلون الى إبتلاع الفرد في الجماعة. هذا هو (...) النمط الشيوعي، انحطاط الشخصية باسم المجتمع (...). انه لطغيان ؛ طغيان روحاني، غير مرئي؛هذا بعيد عن الشراكة (...). أفرغت الشخصية الإنسانية من قدراتها، فأفرغ المجتمع من حيويته الرئيسية».

ولكن ، بالإتجاه المعاكس، يهاجم برودون الطوباوية الفردية التي تُجمِّع فردانيات، الواحدة قرب الأخرى، دون اي شيء عضوي[يجمع بينها]، دون قوة جماعية . والخلاصة : لا شيوعية ولا حرية غير محدودة.«لدينا مصالح مشتركة كثيرة جدا، أشياء مشتركة كثيرة جدا».

وباكونين بدوره هو في آن فرداني وتشاركي. فهو لا يكفُّ عن تكرار ان المجتمع الحر يستند الى فرد حر. في كل مرة يعلن فيها عن حقوق يجب منحها للجماعات، من أمثال حق تقرير المصير، والإنفصال، فهو يجهد لأن يكون الفرد أول المستفيدين. ليس على الفرد واجبات إزاء المجتمع إلا بمقدار قبوله الحر بأن يكون جزءاً من هذا المجتمع. لكل انسان الحرية في التشارك وفي عدم التشارك، في ان « يعيش، اذا رغب في ذلك ، في الصحارى او في الغابات بين الحيوانات المتوحشة». « الحرية هي حق كل كائن انساني في ان يكون مصدر العقوبة على أعماله ووعيه الخاص، في ان تكون ارادته الخاصة هي المحددة لأعماله هذه، وفي الا يكون مسؤولاً، بالتالي، الا إزاء ذاته اولا وأخيراً». ان المجتمع الذي اختار الفرد بحرية ان يكون جزءاً منه لا يأتي في تعداد باكونين للمسؤوليات الا في المرتبة الثانية. على المجتمع إزاء الفرد واجبات اكثر مما له حقوق: ان المجتمع لا يمارس على الفرد، شريطة ان يكون راشداً،«لا رقابة ولا سلطة »، بل يجب ان يؤمن له « حماية حريته».

يتجاوز باكونين الحدود عند كلامه على« الحرية المطلقة والكاملة». لي الحق في التصرف بشخصيتي كما أشاء ، ان أكون كسولاً أم نشيطاً، ان أعيش بكرامة، من عملي الخاص، أو حتى ان استغلَّ بكل وقاحة شفقة الآخرين وثقتهم الخاصة ، بشرط واحد: ان تكون هذه الشفقة وهذه الثقة ارادتين[أي ممنوحتين بحرية] وان تأتيا من قِبَل أفراد

ويضمن، على العكس، الوجود الدائم لأرستقراطية حكومية ضد الشعب». إن الاقتراع العام هو مراوغة، فخ ، صمام حماية، وقناع «تختبىء وراءه سلطة الدولة المستبدة فعلا والمرتكزة على المصارف والشرطة والجيش»، انه «وسيلة رائعة لقمع وإفلاس شعب باسم ارادة شعبية مزعومة».

لا يؤمن التحرري بالتحرر من خلال بطاقة الاقتراع. وبرودون، على الأقل ، على المستوى النظري، هو تغيُّبي[أي يتغيب عن المشاركة في الإقتراع]. فهو يعتقد ان « الثورة الاجتماعية تكون فعلاً مشوهة اذا ما تمت عن طريق ثورة سياسية». الاقتراع هو اللامنطق بذاته، هو عمل متخاذل ، تواطؤ مع فساد النظام: «لكي نشنَّ الحرب على جميع الأحزاب القديمة مجتمعةً، لايجب علينا ان نجدَ في البرلمان حلبة الصراع الشرعي، بل خارجَهُ». الاقتراع العام هو الثورة المضادة. وكي تُكَوِّنَ نفسها في طبقة، ينبغي على البروليتاريا أولاً ان تنشقَّ عن الديمقراطية البورجوازية.

إلا انَّ برودون في ممارسته السياسية النضالية لم يُطبِّق دوما هذا الموقف المبدئي . فقد انتُخب نائباً في حزيران ١٨٤٨ وترك نفسه تنزلق في الدبق البرلماني. ثم في مرتين، في الانتخابات النيابية في أيلول١٨٤٨ وفي الإنتخابات الرئاسية في ١٠ كانون الأول من السنة نفسها، دعم ترشيح راسباي/Raspail/ أحد زعماء اليسار المتطرف، والذي كان مسجوناً آنذاك. وأكثر من ذلك فقد انبهر بتكتيك« الأقل سوءاً» مفضلاً الجنرال كافيناك، جزار البروليتاريا الباريسية على الدكتاتور المبتدىء لويس نابليون. بعد ذلك بفترة طويلة ، في انتخابات ١٨٦٣ و ١٨٦٤ يدعو برودون الى الإقتراع الأبيض (بطاقة بيضاء) ولكن بوصفه تعبيراً عن معارضة للدكتاتورية الامبراطورية وليس لمعارضة مفهوم الاقتراع بذاته، الذي راح يصفُهُ الآن بـ«المبدأ الديمقراطي الأمثل».

احتجَّ باكونين واتباعُهُ أبان الأممية الأولى ضد صفة « التغيبيين» التي اطلقها عليهم الماركسيون من قبيل الهجاء. فمقاطعة صناديق الإقتراع ليست عندهم موقفاً مبدئياً، إنما مسألة تكتيكية . وإذا كانوا يؤكدون أولوية الصراع الطبقي على المستوى الاقتصادي فهم لا يقبلون ان يُقال إنهم لا يتعاطون في « السياسة». هم لا يرفضون السياسة بالمطلق انما السياسة البورجوازية. وهم لا يرفضون الثورة السياسية الا اذا سبقت الثورة الإجتماعية.

يرفضون الحركات السياسية التي لا تحمل كهدف مباشر وآني التحرير الكامل للشغيلة. ان ما يستنكرونه ويهابونه هو تلك التحالفات الإنتخابية الملتبسة مع الأحزاب

الراديكالية البورجوازية من نوع «١٨٤٨»[١] أو نوع «الجبهة الشعبية»[٢]، كما نقول اليوم، يخشى باكونين واتباعه ايضاً ان يصبح العمال المنتجون نواباً، فيعيشون في ظروف حياة بورجوازية ويغدون رجال دولة وليس عمالاً، وبالتالي يصبحون بورجوازيين، وربما اكثر بورجوازية من البورجوازيين أنفسهم.

ان موقف التحرريين إزاء الاقتراع العام هو بعيد كل البعد عن ان يكون متماسكاً وواضح المعالم. فبعضهم يعتبر ان بطاقة الاقتراع هي افضل من لا شيء. وهناك المعارضون المتصلبون الذين يرون ان استعمال هذه البطاقة هو مذموم، أياً كانت الظروف، ويُدخلون هذه المسألة ضمن خانة الصفاء العقائدي. وفي هذا الإطار كان رفض مالاتستا /Malatesta/[٣] لأي تنازل ابان انتخابات اتحاد اليسار في أيار ١٩٢٤ في فرنسا: ففي بعض الظروف يمكن أن تسفر الإنتخابات عن نتائج «حسنة» أو «سيئة» وان النتيجة احياناً يقرِّرها اقتراع التحررين، لا سيما عندما تكون قوى التشكيلات السياسية المتعارضة متساوية تقريباً. «لكن لا يهمّ! فحتى لو كانت بعض التطورات الإيجابية الصغيرة هي نتيجة مباشرة لإنتصار انتخابي، فإن التحررين يجب ان يمتنعوا عن الإنكباب على صناديق الإقتراع». وينتهي مالاتستا قائلاً: «لقد مارس التحرريون دوماً السياسة بكل صفاء وهم يبقون الحزب الثوري الأمثل، حزب المستقبل لأنهم لم يستجيبوا للصفارة الإنتخابية».

سوف تترك الممارسات المتنوعة للعقيدة التحررية على هذا الصعيد امثالاً عديدة، لا سيما في اسبانيا. فسنة ١٩٣٠، تحالف التحرريون مع أحزاب الديمقراطية البورجوازية للقضاء على الدكتاتور بريمو دو ريفييرا /Primo de Rivera/. السنة التالية، ورغم تغيُّبهم الرسمي عن الانتخابات، فقد شاركوا بكثرة في الإنتخابات البلدية التي عجلت اسقاط الملكية. وفي إنتخابات ١٩ تشرين الثاني ١٩٣٣ دعا التحرريون الى عدم المشاركة في الانتخابات، لكن هذه الأخيرة أتت الى الحكم، ولمدة سنتين، بيمين معاد للعمال بعنف. واستباقاً للأمور كانوا يعلنون انه في حال أوصلت دعوتهم الى عدم

(١) اي احزاب اصلاحية ذات طابع بورجواري.(م)

(٢) front populaire، اشارة الى الاحزاب الفرنسية الاصلاحية لعام ١٩٣٦.(م)

(٣) انظر لاحقاً عن هذا التحرري البارز.(م)

الشيوعيين. يوجه نقداً لاذعاً للإمتثال للحزب. «يجب اتباع الحزب دوماً وأينما كان؛ ويجب بالضرورة المطلقة تأييد ودعم مبادئه الأساسية. ينحني الأعضاء لرغبات الحزب، حتى الأقل اهمية منها». «يجب أن يكون برنامج الحزب بنظرهم هو البرنامج «الأكيد، الذي لا ريب فيه (...). ينبغي الإنتماء جسداً وروحاً الى الحزب (...). ومن ينتقل من حزب لآخر، سرعان ما يُقالُ انه مرتد». ان الحزب المتحجر، المرنوليتي، يكف بنظر شتاينر عن ان يكون شراكة؛ إنْ هو الا جثّة. يرفض شتاينر اذن حزباً كهذا، ولكنه لا يرفض الأمل بالدخول ضمن شراكة سياسية: «سوف أجد حتماً أناساً يشاركون معي دون ان يُفْرَضَ علي قسم اليمين على عَلَمي». لا يمكنه الانضمام الى صفوف الحزب الا اذا كان هذا الحزب لا يفرض «شيئاً إجبارياً». الشرط الوحيد لإنتسابه المحتمل الى الحزب هو «دخوله اليه بحرية». «فالحزب ليس بنظره سوى جزء، هو جزء من، هو يشارك في...»، والفرد «يشارك بحرية ويستعيد [حينما يشاء] حريته».

لا ينقص الا تفسير واحد في تحليل شتاينر، مع انه تفسير موجود الى هذا الحد او ذاك من خلال كتاباته، وهو ان مفهومه حول الواحدية الفردانية/unicité individuelle/ ليس فقط «أنانياً» تفيد منه «الأنا» وحدها، بل انه مفهوم تقطُفُ ثماره الجماعةُ أيضاً. فأي شراكة انسانية لا تكون خصبة اذا كانت تسحق الفرد، وعلى العكس تكون خصبة بمقدار ما تنمّي مبادرة الفرد، وطاقته الخلاّقة. أوليست قوة الحزب هي مجموع القوى الفردية التي يتكون منها؟

ان هذا النقص يتأتى من واقع ان التوليف[١]/synthèse/ الشتاينري للفرد والمجتمع يبقى غير كامل، متعثراً. يتحارب اللاإجتماعي مع الاجتماعي في فكر هذا الثائر عوض عن ان يذوبا الواحد بالآخر. وبحق، ينتقد التحرريون الاشراكيون على هذا الصعيد.

وقد انتقدوه بحدة شديدة الى درجة ان شتاينر، والذي كانت تنقصه بالتأكيد معلومات حول هذا الموضوع، أخطأ بتصنيفه برودون «شيوعيا تسلطياً». وللحقيقة، اذا كان برودون قد تهكم من «العبادة» الشتاينرية للفرد[٢]، فإن أثره بأكمله [كل جهوده] هو البحث عن توليف او قل عن «توازن» بين همّ الفرد ومصلحة المجتمع، بين القوة

(١) اي موقفه حول علاقة الفرد والمجتمع، عملية التوفيق بينهما.(م)

(٢) دون ان يذكر اسم شتاينر، مما يعني انه ربما لم يقرأه.

بعني انني موجود».

وبالتأكيد ، ان الحميّا التي تستثير قلم شتاينر توقعه من حين لآخر في تناقضات . فتصدر عنه بعض الأقوال ضد ـ الإجتماعية. تصل به الحال احياناً الى التعبير عن استحالة العيش في المجتمع:« لا نطمح الى الحياة المشتركة ،بل الى الحياة المنعزلة[الى العيش المنعزل]». «ميّتٌ هو الشعب ! صباح الخير انا ! سعادة الشعب هي تعاستي». «اذا كان الأمر صحيحا بنظري، فهو صحيح. يمكن الا يكون الأمر صحيحاً بنظر الآخرين ، فهذه مشكلتُهم، لا مشكلتي: فليدافعوا عن انفسهم[عن آرائهم]».

لكن هذه اللبطات من حين لآخر تعكس جوهر فكره. فشتاينر، وعلى الرغم من هذه النفخرات الناسكية فهو يصبو الى الحياة الجماعية. مثل غالبية المنعزلين، المتحجرين، الانطوائيين، يَحنُّ شتاينر كثيراً الى هذه الحياة. اما الذي يسأله كيف تسمح له حصريّتُهُ وتشبُّثُهُ العيش في المجتمع، فيجيبه وحدَهُ الانسان الذي فهم«فراديته» يمكنه ان يقيم علاقات مع امثاله. يحتاج الفرد الى اصدقاء ، الى حضور، واذا كان يكتب كتباً فهو بحاجة لآذان. يتحد الفرد مع قريبه لتعزيز قوته ولكي يكون العطاء المرتكز على القوة المشتركة[مجموع قوى الأفراد] اكبر مما يمكن ان يعطيه كل فرد منعزلاً . «اذا كان يوجد خلفك عدة ملايين من الناس لحمايتك، تشكلون سوية قوة مهمة وسوف تحققون الانتصار بسهولة». ولكن بشرط واحد: هذه العلاقات مع الآخرين يجب أن تكون إرادية وحرة، قابلة دوماً للفسخ. يُميّزُ شتاينر بين المجتمع الجاهز[القائم مسبقاً] والذي هو إكراه، والشراكة التي هي عند حر:«يستخدمك المجتمع فيما أنت تستخدم الشراكة /association/».«بالطبع تفرض الشراكة تضحية، حداً من الحرية. لكن هذه التضحية لا تصب في الشيء العام[1] : «ان مصلحتي الشخصية وحدها هي التي دفعتني لبذل هذه التضحية».

ان مؤلف« الواحدي وملكيتُهُ»[2] /L'Unique et sa propriété/ يعرض بصورة خاصة للإهتمامات المعاصرة عندما يطرح مسألة الحزب، مشيراً بوضوح الى حزب

(١) الشيء العام = /chcse publique/ ، أي المجتمع ككل، الدولة واجهزتها.(م)

(٢) الكتاب الرئيسي لهذا الفيلسوف الالماني (١٨٠٦ـ١٨٥٦) «الواحدي وملكيتُهُ» هو نقد لليبرالية السياسية والاجتماعية وبحسب دانيال غيرين ، وبعكس الاعتقاد السائد هو توفيق بين الشيوعية وحرية الفرد .(م)

المشاركة في الاقتراع الرجعي الى السلطة فسيجيبون بإشعال الثورة الإجتماعية. وهذا ما حاولوا فعلاً القيام به، بعد وقت قليل ، ولكن دون جدوى ، لا بل بخسارة جسيمة(ضحايا، جرحى،سجناء). وفي مطلع سنة ١٩٣٦ عندما تحالفت الأحزاب البسارية في الجبهة الشعبية، ضرب الإرتباك التحرريين ـ النقابيين حول الموقف الذي ينبغي اتخاذه.

وفي النهاية ، أتى القرار بالامتناع عن التصويت ولكن على مضض، وكانت الحملة شبه صامتة، لم تسمعها الجماهير ، تلك الجماهير التي لم يكن أحد يجهل انها ستشارك في التصويت. وبالفعل فقد أدت هذه المشاركة الى انتصار الجبهة الشعبية(٢٦٣ نائب يساري مقابل ٨١ يميني). تجدرُ الإشارة الى ان التحرريين ، رغم تهجُّمهم الحاد على الديمقراطية البورجوازية ، فهم يقرُّون بصفتها التقدمية نسبياً. حتى شتاينر ، الأكثر رفضاً، ينطق من حين لآخر بكلمة« تقدم»، كصفة للإنتخاب. ويقول برودون« إن هناك تقدماً في انتقال الشعب من الدولة الملكية الى الدولة الديمقراطية » ؛ وباكونين:« لا يجب ان يُظَنَّ اننا نريد (...) انتقاد الحكومة الديمقراطية، لمصلحة الملكية (...)، إنَّ الجمهورية الأكثر سوءاً هي الف مرة أفضل من الملكية الأكثر تنويراً (...). ان النظام الديمقراطي يرفع الجماهير شيئاً شيئاً الى الحياة العامة»، وهذا ما ينزع صفة الصحة عن قول لينين إن «بعض التحرريين» يعلّمون ان «شكل القمع لا يهمُّ بنظر البروليتاريا». وفي الوقت ذاته تصبح خاطئة الشكوك التي يعبر عنها هنري أرفون /Henri Arvon/ في كتابة الصغير عن التحررية (الأنرشية)، من ان الموقف الأنرشي[التحرري] المعادي للديمقراطية يلتقي مع الموقف ضد ـ الثوري المعادي للديمقراطية.

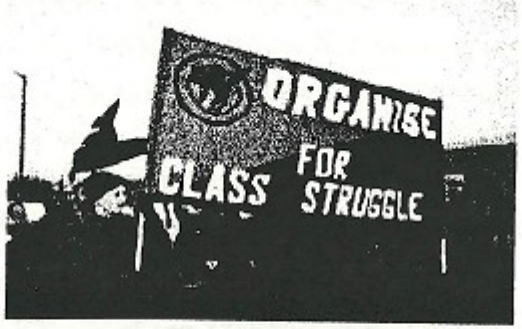

نقد الاشتراكية "التسلطية"

يُجمع التحرّريون على إخضاع الاشتراكية «التسلطية» لنار نقد قاس. عندما كانوا يطلقون اتهاماتهم بشكل لاذع، فإنها لم تكن مبرَّرَة كاملاً: اذ ان الذين كانت توجّه اليهم هذه الاتهامات، كانوا إما شبوعيين «بدائيين» لم تلفّحهم بعد الانسانوية الماركسية، وإما، مثل حالة ماركس وانجلز: لم يكونوا «تسلطيين» ودوكاتيين بالقدَر الذي يزعمه التحرّريون. ولكن، في أيامنا هذه، لقد انتشرت وتعدّدت الاتجاهات «التسلطية» التي لم تكن ظاهرة بعد في الفكر الاشتراكي الا بشكل جنيني وضعيف. أمام ما بولّده اليوم الفكر التحرري من امتدادات، فإن النقد التحرري (الأنرشي) أصبح يبدو أقل افتراء وأكثر صحة؛ واكثر من هذا، فهو يتميز في غالب الأحيان بميزة تكهنية.

يؤيد شتاينر الشيوعية ولكن بشرط هو التالي: اذا كان الاعتقاد الشيوعي لمغلوبي المجتمع الحالي خطوة اولى الى الأمام على طريق تحرّرهم الكامل، فإنهم لن يقضوا على «انسلابهم» نهائياً، لن يبرزوا فعلاً قيمة فردانيتهم الا بتجاوزهم الشيوعية.

وبالفعل فإن شتاينر يرى ان العامل في النظام الشيوعي سوف يظل خاضعاً لهيمنة مجتمع العمال. وهذا العمل، يفرضه عليه المجتمع؛ انه بالنسبة للعامل بمثابة قصاص. ألم يكتب الشيوعي ريتلنغ /Weitling/: «لا تستطيع القدرات ان تنمو الا ما بمقدار عدم إرباكها لتجانس المجتمع». وعلى هذا يجيب شتاينر: «أن أكون مستقيماً في نظام طاغ أو في مجتمع ريتلنغ، فإنه غياب القانون نفسه في كلا الحالتين».

ان الشيوعي لا يعطي اهمية كبيرة للإنسان، «للوقت الحر»، بل يكتفي بإعطائها

الأخلاقية الجنسية [من الحب والشغف] الموقف ذاته الذي اتخذته المسيحية. هم يرفضون سماع نداءات الجسد. يبذلون كل جهودهم لمحاربة الجسد. يصفعون «اللاأخلاقية على وجهها». وهذه الأحكام المُسبَقَة الأخلاقية التي علمتهم إياها المسيحية تعيث خاصة بين الجماهير الشعبية: «يدفع الشعب بشراسة الشرطة لمحاربة كل ما يبدو له غير أخلاقي او حتى غير لائق، وهذه الشراسة الشعبية المدافعة عن الأخلاقية تحمي مؤسسة الشرطة أكثر مما تستطيع القيام به الحكومة ذاتها».

مستبقاً علم التحليل النفساني المعاصر، يلاحظ شتاينر وينقض عملية الاستبطان[1]. منذ طفولتنا، جرى تلقيننا الأحكام الأخلاقية المسبقة، وأصبحت الأخلاق «قوة داخلية لا يمكنني الخلاص منها». «ان قمع هذه الأخلاقية هو عشر مرات أقسى من السابق لأنه، يُزمْجرُ في وعيي». «يُدفعُ الشبانُ كالقطعان الى المدرسة كي يتعلموا الأقوال القديمة المتكرّرة وعندما يحفظونها غيباً، يُعتَبرون راشدين». يحارب شتاينر الأبقونات والتقاليد: «ان الله، والوعي، والواجبات والقوانين هي أكاذيب وهرطقات حشوا بها ادمغتنا وقلوبنا». ان السحرَة والفاسدين الحقيقيين للشبّان هم رجال الدين والأهالي الذين «يعطلون القلوب الشابة ويوقعون الرؤوس الشابة بالهبل والعته». اذا كان هناك ثمة عمل «شيطاني» فهو ذلك الصوت الإلهي المزعوم الذي أدخلوه في الوعي [في وعينا].

في إطار رده لاعتبار الفرد يكتشف شتاينر ما تحت الشعوري[2] الفرويدي. ان الأنا قوية بحيث انه لا يسمح بالتغلب عليها، وبالقبض عليها. وبوجهها «تتكسَّرُ فُتاتاً امبراطورية الفكر، والتفكير والذهن». الأنا هي ما لا يُعبَّرُ عنه، ما لا يمكنُ تصوره، ما لا يمكن الإمساك به. ونحن نسمع عبر هذه الأقوال المأثورة، اللامعة الصدى الأول للفلسفة الوجودية: «اني انطلق من افتراضية، متخذاً من ذاتي /Me/ هذه الافتراضية (...). اني استخدم هذه الأنا [ذاتي] فقط كي اتمتع بها، كي اتغذى بها (...). لا أكون موجوداً لا بمقدار ما أتغذى منها (...). أن ابتلع نفسي [ذاتي]

(١) والمقصود هنا ان القيم الاخلاقية والأحكام المسبقة الأخلاقية التي لقننا اياها الديانات دخلت رؤوسنا، بواطننا، وغدت صلبة بحيث لم يعد باستطاعتنا التغلب عليها بسهولة. (م)

(٢) ما تحت الشعوري، تعريب لكلمة /subconscient/ وتعني ما هو واعٍ قليلاً او ما يلامس الوعي؛ ما هو غير واعٍ ولكن مع امكانية الوصول الى الوعي. (م)

للعامل. فهو يهمل الأساسي: السماح للعامل بالإستفادة من ذاته كفرد، بعد القيام بمهمته كمنتج. وبشكل خاص، يلمح شتاينر خطورة المجتمع الشيوعي، حيث الملكية الجماعية لوسائل الانتاج ترمي بين أيدي الدولة سلطات أكثر إفراطاً مما هي عليه في المجتمع الحالي:« ان الشيوعية بإلغائها لكل ملكية فردية، ترميني اكثر في التبعية للآخرين، للعمومية أو الكلية، ومع انها تهاجم الدولة بعنف، فإن إرادتها تصب في إقامة دولتها هي ايضاً، (...) ما يشلُّ نشاطي الحر ويقيم سلطة سيدة علي (على الأنا). بوجه هذا القمع الذي أرزح تحت عبئه والذي يمارسه المالكون الفرديون، تثور الشيوعية وهي على حق في ذلك، ولكن النفوذ الذي تضعه في أيدي الكلية لهو أكثر رعباً».

بالقوة ذاتها، يستاء برودون من « النظام الشيوعي»، الحكومي، الدكتاتوري، التسلطي، العقائدي، الذي ينطلق من مبدأ« الفرد هو أساساً تابع للجماعة». أن المفهوم الذي يحمله الشيوعيون حول سلطة الدولة هو بالضبط المفهوم ذاته الذي كان يحمله أسيادهم القدماء. بل هو أقل ليبرالية بكثير.« مثل جيش استولى على مدافع العدو، كل ما فعلته الشيوعية هو توجيه مدفعيتها الخاصة ضد جيش المالكين. والعبد يقلّد دوماً معلمه». يصف برودون بهذه العبارات النظام السياسي الذي يعزوه الى الشيوعيين:

«ديمقراطية متراصّة ، مبنية شكلاً على دكتاتورية الجماهير، ولكن حيث لا تملك الجماهير من السلطة سوى ما يكفي لضمان العبودية الكونية ، إنطلاقاً من الصيغ التالية، المستقرضة من السلطة المطلقة القديمة :

« عدم تجزئة السلطة؛

«مركزية مبتلِعة؛

«تهديم منهجي لكل فكر فردي، تعاوني ومحلي، اذ يُعتبر انشقاقياً؛ شرطة تحقيقية وتعسفية».

يعمل الإشتراكيون « التسلطيون» « لثورة من الأعلى».« يدعمون فكرة ان بعد الثورة يجب ان تستمر الدولة . هم يحافظون على الدولة، والسلطة، والتسلط، والحكومة، لا بل يفاقمون أهمية هذه العناصر. ما يفعله الإشتراكيون« التسلطيون» هو تبديل

الأطوار، لا تتبعه سوى حفنة من الفرديين « المصرّين على ذنوبهم». اما اليوم فإن عظمة وجرأة ما قاله تبدو بوضوح كبير[1]. وبالفعل ، يبدو ان مهمة العالم المعاصر تكمن في انقاذه الفرد من جميع الانسلابات[2] التي يرزح تحت عبئها ، من الانسلاب الصناعي الي الامتثال الكلياني. في مقالة شهيرة لعام ١٩٣٣ ، تذمّر سيمون فيل/Simone Weil/ لعدم إيجاد أجوبة في الأدب الماركسي على الأسئلة التي تطرحها ضرورات الدفاع عن الفرد ضد الأشكال الجديدة للقمع التي تلت القمع الرأسمالي الكلاسيكي. والحال ان هذا الصدع، الخطير بالفعل، جهد شتاينر منذ قبل أواسط القرن التاسع عشر لرأبه.

شتاينر هو كاتب ذو أسلوب حاد ، ينقر نقراً، يعبّر عن أفكاره بقرقعات تشبه الأقوال المأثورة:« لا تُفتشوا بالتنازل عن انفسكم عن حرية تأخُذُ منكم أنفسكم بالضبط، بل فتشوا عن أنفسكم(...). ليكن كل واحد منكم انا نافذة». لا يوجد حرية غير تلك التي ينتزعها الفرد بنفسه. فالحرية المعطاة ، الممنوحة ، ليست حرية : بل « سلطة مسروقة». « ليس ثمة حاكم غيري باستطاعته ان يقرّر اذا ما كنت على حق ام لا». « ان الأشياء الوحيدة التي لا يحق لي فعلُها، هي تلك التي لا أفعلها بذهنية حرة». « لك الحق في ان تكون ما تملُك القوةَ على كونه»[على ان تكونه]. ان ما تقوم به، تقوم به كفرد فريد. « لا تستطيع الدولة، ولا المجتمع ولا الإنسانية ان تكبح هذا الشيطان».

لكي يتحرر الفرد، عليه الشروع بإعادة النظر بما لقنّه إياه مولدوه ومعلمّوه. عليه القيام بعمل واسع« لنزع القدسية»/désacraliser/ عما تعلمه منهم. بدءاً من الأخلاقية المسماة بورجوازية: «مثل البورجوازية نفسها، التي هي حقلها الخاص، الأخلاقية البورجوازية هي قريبة جداً من السماء الدينية، هي لا تزال هشة الحرية، تستقرض من البورجوازية قوانينها لتنقلها كما هي على حقلها الخاص ، عوض ان تخلق مفاهيمها الخاصة والمستقلة».

ينتقد شتاينر بصورة خاصة الأخلاقية الجنسية. لقد اتخذ رسل العلمانية من

(١) انظر لاحقاً، في نهاية هذا الكتاب ، ملحقات حول شتاينر.

(٢) الانسلاب /aliénation/ بالمعنى القانوني والعادي يعني عملية البيع /vente/. في الماركسية ، الانسان المنسلب هو الذي باع عقله وجسده للفكر البورجوازي فانسلب دينيا، واقتصاديا وسياسيا، وسهل اخضاعه لكل انواع القمع.(م)

التسميات (...). كأن تبديل الكلمات يكفي لتحويل الأشياء!» ويرمي برودون هذه النكتة:« الحكومة(الحكم) هي بطبيعتها ضد ثورية (...). ضعوا القديس سان بول في السلطة: يصبح غيزو[1] أو تاليران[2] .

يفضّل باكونين هذا النقد للشيوعية « التسلطية»: «اني اكره الشيوعية لأنها نفيٌ للحرية ، واني لا استطيع تصور أي شيء انساني دون حرية. لستُ مطلقاً شيوعياً لأن الشيوعية تمركز وتبتلع كل قوى المجتمع في الدولة، لأنها تؤدي بنا بالضرورة الى مَرْكَزَة الملكية بين يدي الدولة، أما انا فأريد الغاء الدولة ـ الاقتلاع الجذري لمبدأ سلطة الدولة ووصاية الدولة، هذه الدولة التي استعبدت الناس وقمعتهم واستغلتهم وافسدتهم، ولا تزال، بحجة جعل الناس أكثر أخلاقية وأكثر تمدّناً . أريد تنظيم المجتمع والملكية الجماعية من تحت الى فوق، عن طريق التشارك الحر /association libre/ ، لا من فوق الى تحت، عن طريق أي سلطة كانت (...). هاكم بأي معنى أنا جماعي، ولست شيوعياً»[3] .

بعد هذا الخطاب بقليل(١٨٦٨) انتسب باكونين الى الأممية الأولى حيث اصطدم هو ومؤيدوه ليس بماركس وأنجلز فحسب ، بل بآخرين أيضاً انتقدوا مواقفه وعلى نحو أكثر عنفاً مما فعله مؤسسا الاشتراكية العلمية: من ناحية ، الاجتماعيون ـ الديمقراطيون

---

(١) غيزو، François Guizot، رجل دولة ومؤرخ فرنسي (١٧٨٧ ـ ١٨٧٤). كانت سياسته الداخلية تدعم مصالح البورجوازية الكبرى ، مما فاقم البؤس العمالي واثار معارضة متزايدة .(م)

(٢) تاليران، Talleyrand - Périgort ، رجل دولة فرنسي(١٧٥٤ ـ ١٨٣٨) . شغل منصب وزير الخارجية في عهد الدركتوار والامبراطورية . ذكي ومثقف ، عُرف تاليران بحبه للمال واخلاقيته المشكوك بها.(م)

(٣) من يقرأ باكونين يعرف انه كان شيوعياً، أي انه كان يعتنق المبادىء الأساسية للشيوعية: مفهوم الملكية الجماعية، المادية التاريخية والديالكتيكية، النضربات الاقتصادية الماركسية... كُرهُهُ للشيوعية هو كره للتسلط الحزبي والمركزي. هو شيوعي فدرالي، شيوعي تحرري.(م)

الضرورة المزعومة[ضرورة المؤقت والانتقالي]. عشية الثورة الإسبانية لعام ١٩٣٦ حصر دييغو أباد دو سانتيان /Diego Abad de Santillan/ الاشتراكية «التسلطية» في التحديد الآتي:« إما تعطي الثورة الثروة الإجتماعية الى المنتجين ، وإما لا تعطيهم إياها. فإذا أعطتهم هذه الثروة ، وإذا تنظم المنتجون للإنتاج والتوزيع جماعياً ، فإن الدولة تنتهي من تلقاء ذاتها. وإذا لم تعطهم الثورة ذلك، فهي ليست سوى خدعة ، والدولة تبقى» . ولقد اعتبَر بعضهم هذا التحديد مبسَّطاً بعض الشيء ؛ وهو للحقيقة ليس مبسطاً اذا ما انطلقنا مما أراده التحرريون فعلاً : فهؤلاء ليسوا ساذجين ليحلموا بأن البقايا الدولانية ستزول بين ليلة وضحاها، بيد انهم يريدون القضاء على هذه البقايا بأسرع وقت ممكن ، فيما « التسلطيون» مسرورون لفكرة ديمومة الدولة الانتقالية ، المسماة احتياطياً «عمالية».

مصادر الطاقة :

الفرد

مقابل تراتبيات وإكراهات الاشتراكية« التسلطية» يطرح الانسان التحرّري مصدرين للطاقة الثورية: الفرد وعفوية الجماهير. حسب الحالة ، يكون التحرّري فردياً اكثر منه اجتماعياً، أم اجتماعياً اكثر منه فردياً . ولكن، كما لاحظ ذلك اوغستين هامون في استطلاع الرأي الذي سبق الكلام عنه ، لا يمكننا تصور تحرّري غير فردي[خال من النزعة الفردية].

ردَّ شتاينر الاعتبار للفرد في عصر كان يهيمن عليه مفهوم المعاداة للفردية /antiindividualisme/ الهيغلي، على المستوى الفلسفي، وعلى مستوى النقد الإجتماعي، كانت مساوىء الأنانية البورجوازية قد دفعت بغالبية الإصلاحيين الى إبراز نقيض هذه الأنانية : ألم تلد كلمة اشتراكية كنقيض للفردية؟

يُمَجِّدُ شتاينر القيمة الجوهرية للفرد «الواحدي»، اي الذي لا شبيه له إطلاقاً ، والذي سحبته الطبيعة نسخة واحدة(وهذا مفهوم تؤيده أحدث أبحاث البيولوجيا). خلال فترة طويلة بقي هذا الفيلسوف في دوائر الفكر التحرري منعزلاً، مُعتَبَراً غريب

الألمان الذين تنحلى عندهم الدولة بهالة من العبادة والذين يرغبون بإرساء« دول شعبية» غامضة عن طريق الانتخاب والتحالفات الإنتخابية؛ من ناحية ثانية البلانكيون[1] الذين يدعون لدكتاتورية ثورية أقلية، ذات صفة مؤقتة . يحارب باكونين بعنف هذين المفهومين المتمايزين ، «التسلطيَّين» كلاهما، واللذين بقي ماركس وانجلس يتأرجحان بينهما، لأسباب تكتيكية، الى ان رفضاهما، الى هذا الحد او ذاك ، تحت ضغط النقد التحرري(الأنرشي).

لكن ما جعل باكونين يتصادم مع ماركس هي الطريقة العصبوية والشخصية التي تسلط بها ماركس على الأممية الأولى ، سيما بعد ١٨٧٠. في هذا الصراع الذي كان يدور أساساً حول مسألة رقابة التنظيم ، أي الحركة العمالية الدولية، لا شك ان المُحرِّكين كانا على خطأ. فباكونين ليس بريئا تماماً، إذ إن ما يتهم ماركس به هو غالباً غير عادل، لا بل يعتريه قسط من النية السيئة . غير انه ما يجب ان يلفت انتباه القارىء اليوم هو ان باكونين أحسن الفعل بإطلاقه صرخة تحذيرية ، منذ الـ ١٨٧٠ ضد بعض المفاهيم التنظيمية للحركة العمالية وللسلطة« البروليتارية» ، وهي مفاهيم سوف تُشوِّه الثورة الروسية ، بعد هذا التاريخ بكثير. يرى باكونين في الماركسية أحياناً بصورة غير عادلة ، وأحياناً عن حق، نواة ما سيصبح اللينينية، ثم سرطانه الستالينية.

ويصرخ باكونين، مُسنداً بشيء من الخبث الى ماركس وانجلس نوايا، إذا افترضنا ان هذين الرجلين كانا يضمرانها فعلاً ، فهما لم يفصحا عنها علانية يوماً: « يُقال لنا، ان كل العمال لا يمكن ان يكونوا علماء؛ الا يكفي ان توجد في قلب هذه الشراكة[الأممية] نثة من الرجال تملك علم وفلسفة وسياسة الاشتراكية، بالصورة الكاملة التي تسمح بها ايامنا هذه ، كي يكون باستطاعة الأغلبية (...) ، عبر خضوعها بإيمان لقيادتها (...) ، ضمان سيرها في الخط الذي يجب ان يوصلها الى التحرير النهائي

(١) نسبة الى أوغسط بلانكي/Auguste Blanqui/، الاشتراكي الثوري الفرنسي. اعتقل عدة مرات . عند اطلاق سراحه للمرة الثالثة عام ١٨٧٧ استعاد نشاطه كمنظم للحركة الاشتراكية وأصدر صحيفة «لا اله ولا سيد». قارىء لأعمال ماركس، لكنه انتقد الشيوعية الطوباوية ودعا الى العمل الثوري. البلانكية هي « الرابط الضروري بين الفكر الاشتراكي الأول والماركسية. (م).

النكتة :« خذوا الثوري الأكثر راديكالية وضعوه على عرش كل البلدان الروسية او امنحوا له سلطة دكتاتورية (...) وسترون قبل سنة انه سيصبح اشنع من القيصر ذاته!»[1]

بعد إنجاز الثورة في روسيا سوف يلاحظ فولين[2] /Voline/ الذي سيكون محركاً لهذه الثورة، شاهداً ومؤرخاً لها، ان دروس الوقائع تتطابق مع دروس المعلمين. نعم بالتأكيد، السلطة الإشتراكية والثورة الإجتماعية هما عنصران متناقضان. يستحيل التوفيق بينهما: «ان الثورة التي تُسنوحى من الإشتراكية الدولاتية وتمنحُها مصيرها، وإن بصورة « مؤقتة» و«انتقالية»، هي ثورة خاسرة: اذ انها تمشي على طريق خاطىء، على منحدر اكثر فأكثر حدة(...). كل سلطة سياسية تخلق ، لا محال، وضعاً امتيازياً للأشخاص الذين يمارسونها (...) . بعد استيلائها على الثورة ، والتحكم بها ، ولجمها، تضطر السلطة لخلق جهازها البيرقراطي والإكراهي ، الذي لا مفرَّ منه لكل سلطة تريد البقاء، والقيادة ، والأمر، أو بكلمة واحدة:« تزيد الحكم»(...): قواد، موظفون ، عسكريون، شرطيون ، أعضاء في الحزب الحاكم (...) . كل سلطة تحاول، الى هذا الحد أو ذاك، الإمساك بزمام الحياة الإجتماعية. فتعتاد الجماهير على السلوك التبعي، اذ انه يصار الى خنق ذهنية المبادرة، بفضل وجود هذه السلطة (...). السلطة « الشيوعية» هي (...) صرّاعة[3] حقيقية. والسلطة اذ يجري نفخها عبر الصلاحيات الممنوحة لها ، (...) فهي تهابُ اي عمل مستقل . سرعان ما تبدو لها أي مبادرة مستقلة مريبة ، مهدِّدة ، (...) لأنها[أي السلطة] تريد الامساك بالمقوَد ، تريد الامساك به منفردة. تبدو لها كل مبادرة أخرى تدخلاً في مجالها وفي صلاحياتها، يستحيل القبول به».

وعلى كل حال، لما هذا« المؤقت» وهذا« الانتقالي»؟ فالتحررية تنقض بالكامل هذه

(١) «العلم والمهمة الثورية الملحة»، كولركول ، جنيف ، ١٨٧٠.

(٢) Voline، هو تحرري روسي، ١٨٨٢ ـ ١٩٤٥. ناضل الى جانب ماخنو ، اعتقله البلشفيون في العام ١٩٢٠. كتب «الثورة المجهولة» الذي يُعتبر المؤلف الكلاسيكي التحرري للثورة الروسية .(م)

(٣) صرّاعة : assommoir ، وهي اداة للقتل ، كالدبوس مثلا .(م)

للبروليتاريا؟ (...) هذا هو النمط من التفكير الذي سمعناه، بصورة غير علنية ـ اذ ان البوح به يحتاج الى جرأة ورصانة غير موجودتين ـ والذي نما سراً، مع تحفظات من كل الأنواع، ولَبقة الى هذا الحد أو ذاك». ويستمر باكونين في هجومه:« بما أنهم انطلقوا من مبدأ(...) ان للفكر أفضلية على الحياة وان للنظرية أفضلية على الممارسة الإجتماعية، وانه بالتالي، يجب ان تكون الثورات الاجتماعية، وإعادة البناء الإجتماعي نقطة الانطلاق، فقد توصلوا الى خلاصة ان الفكر والنظرية والعلم، بما انها ثلاثتها مُلكية حصرية لفئة قليلة من الناس، فإن هذه الأقلية هي التي يجب ان تقود الحياة الإجتماعية». إن الدولة الشعبية المزعومة لن تكون سوى حكومة استبدادية للجماهير الشعبية، عبر ارستقراطية جديدة وضيقة جداً، مؤلفة من علماء حقيقيين او مزعومين.

يكن باكونين اعجاباً كبيراً للقدرات الفكرية لماركس، الذي كان عزم على نقل مؤلفه الأساسي، « الرأسمال»، الى اللغة الروسية، كما انه يعتنق كاملاً المفهوم المادي للتاريخ. انه يقدّر احسن تقدير المساهمة النظرية لماركس في تحرير البروليتاريا. لكن ما لا يقبل به هو ان يمنح التفوق الفكري حق قيادة الحركة العمالية:« ان الزعم بأن فئة من الأفراد، حتى الأكثر ذكاء وصدقاً، هي قادرة ان تصبح فكر، وروح، والإرادة القائدة والموحِّدة للحركة الثورية وللتنظيم الإجتماعي لكل البلدان، انها لهرطقة مخالفة لأبسط المفاهيم وللتجربة التاريخية، بحيث نتساءل وبعجب كبير كيف وقع رجل فيها بذكاء ماركس(...). ان قيام دكتاتورية جامعة (...)، تلبي حاجات المهندس الرئيسي للثورة العالمية، الذي ينظم ويقود الحركة الانتفاضية لجماهير كل البلدان كما تُدارُ ماكينة (...)، نقول ان قيام دكتاتورية كهذه يكفي لوحده لقتل الثورة، لشل وتشويه جميع الحركات الشعبية (...). وماذا نقول اذن عن مؤتمر دولي يفرض، لمصلحة هذه الثورة المزعومة، على بروليتاريا كل العالم المتمدن حكومة منوطة بسلطات دكتاتورية؟».

لقد اثبتت تجربة الأممية الثالثة، منذ ذلك الحين، ان باكونين اذا كان قد بالغ بالتأكيد بإسناده الى ماركس مفهوماً استبدادياً، الى هذه الدرجة من الشمولية، فإن الخطورة التي حذّر منها قد تحقّقت بعد ذلك التاريخ بكثير.

أما بالنسبة للخطر الدولاني[1] في النظام الشيوعي فان اللاجيء الروسي[أي باكونين] لم يكن أقل تبصراً. يطمح الإشتراكيون «العقائديون»، بنظره، الى «وضع الشعب في عدّات جديدة»[2]. هم يؤيدون بالطبع، مع التحرريين، فكرة ان الدولة هي نيرٌ لكنهم يقولون ان الدكتاتورية وحدها ـ دكتاتوريتهم طبعاً ـ هي القادرة على خلق حرية الشعب؛ على هذا نُجيبُ بأن هدف اي دكتاتورية هو الاستمرار أطول مدة ممكنة. عوض ان نترك البروليتاريا تُدمّر بذاتها الدولة، فإنهم يريدون «نقلها(...) الى أيدي محسنيها، حراساً وأساتذة، زعماء الحزب الشيوعي». لكنهم اذ يرون ان حكومة كهذه هي دكتاتورية فعلية«أيا كانت الأشكال الديمقراطية التي تتخذها» فإنهم «يعزون أنفسهم بفكرة ان هذه الدكتاتورية سوف تكون مؤقتة ولفترة قصيرة». لا، لا! يجيب باكونين. سوف تؤول هذه الدكتاتورية المؤقتة المزعومة، لا محال، الى « إعادة بناء الدولة، والامتيازات، وعناصر لا مساواة وقمع الدولة»، الى تشكيل ارستقراطية حكومية تبدأ من جديد باستغلال الشعب وإخضاعه بحجة السعادة المشتركة او لإنقاذ الدولة». وسوف تكون هذه الدولة «أكثر إطلاقية لأن جورها يختبيء بعناية خلف ظواهر إحترام متزلّف(...) لإرادة الشعب».

لكن رؤية باكونين بقيت بالغة الوضوح، فهو لا يزال يعتقد بنجاح الثورة الروسية: « اذا تأخر عمال الغرب طويلاً، فإن الأمثولة ستأتيهم من الفلاحين الروس». ان الثورة في روسيا سوف تكون أساساً تحررية. ولكن حذار من اللاحق! يمكن ان يكمِّل الثوريون بكل بساطة دولة بيار لوغران[3] «المرتكزة على إلغاء كل مظاهرة للحياة الشعبية»، لأنه «يسعنا تغيير العنوان الذي تحمله الدولة، شكلها(...)، بيد أن عمقها يبقى هو ذاته دوماً». يجب إما تهديم هذه الدولة، إما «المصالحة مع هذه الأكذوبة الأكثر خساسةً والأكثر خطورة التي ولّدها عصرنا(...): البيرقراطية الحمراء». ثم يطلق باكونين هذه

---

(١) من دولة، والمقصود بقاء مؤسسة الدولة، حتى بعد انتصار الثورة الشيوعية وهيمنة الحزب .(م)

(٢) يستخدم باكونين كلمة /harnais/، وتعني مجموع التجهيزات التي توضع على حصان النقل او الركوب .(م)

(٣) هو بيار الثالث الملقب لغران /Le Grand/، ملك الأراغون، منطقة شمال شرق اسبانيا، ما بين ١٢٣٩ ـ ١٢٨٥.(م)